ألف حكاية وحكاية (١٢٠)



ضحكة فرعونية

وحكايات أخرى

بقلم

يعقوب الشارونى



رسوم

نسيم

الناشر
مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة
ت : ٥٩٠٨٩٢٠

ما بعد الأيام

فى خاتمةِ كتابِ "ما بعد الأيام" ، الذى كتبَهُ الدكتور "محمد حسن الزيات" وزيرُ خارجيةِ مصرَ الأسبقُ ، عن والدِ زوجتِهِ الدكتور طه حسين ، عميدِ الأدبِ العربىِّ ، يقولُ:

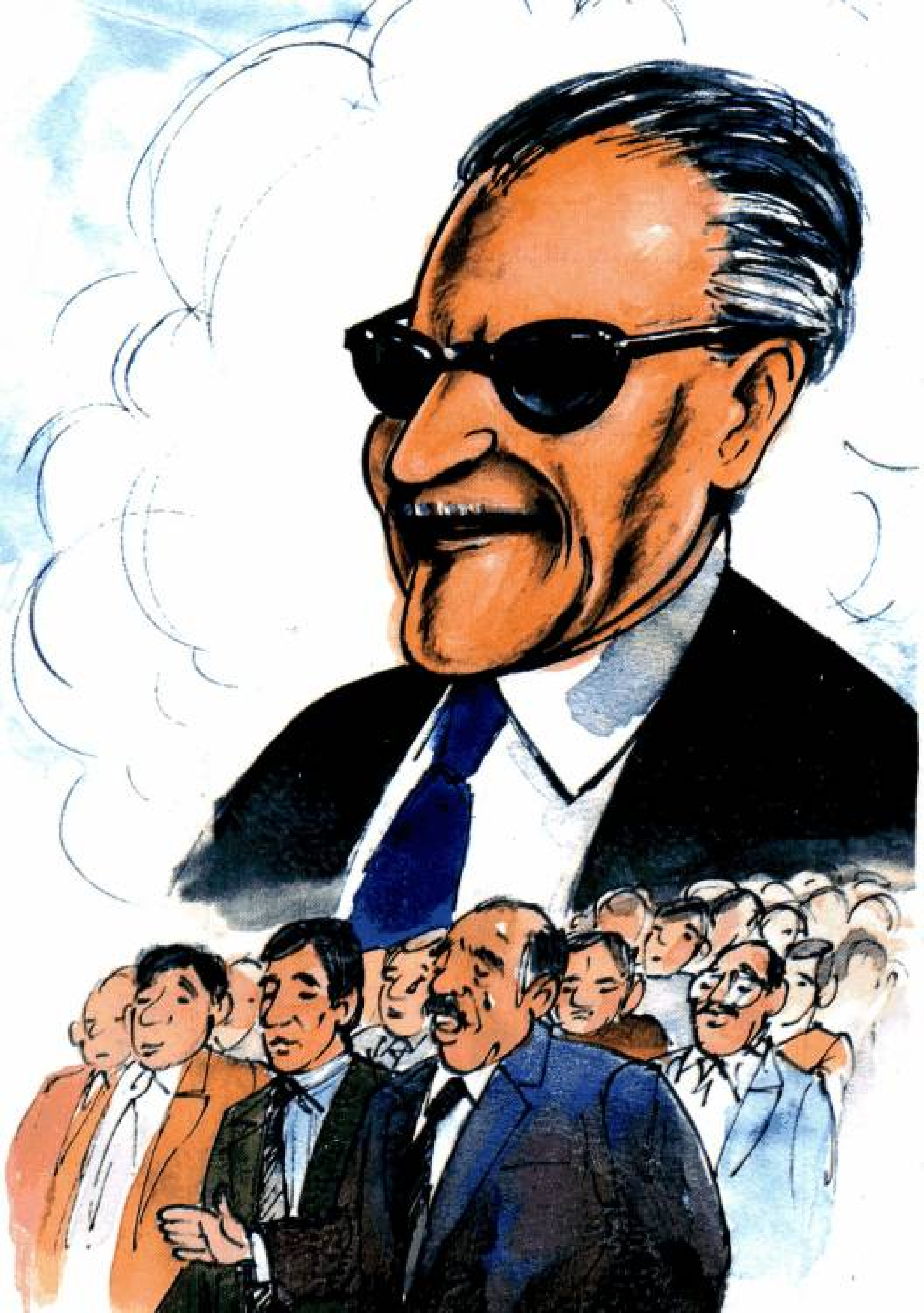
رأيت رجلاً من بينِ جماهيرِ الشعبِ الذين وقفوا يُشيِّعونَ العميدَ ، بعدَ رحيلِهِ فى الثامنِ والعشرينَ من أكتوبر عامَ ١٩٧٣ ، وقفَ يبكى مع ابنِهِ ويقولُ له:

"أنتَ يا بُنَىَّ تبكى طه حسين لأنَّكَ تعلَّمْتَ منه ، وقرأتَ له ، وسمعْتَ أحاديثَهُ فى الإذاعةِ.

وأنا يا بُنَىَّ لم أتعلَّمْ من طه حسين ، ولم أقرأ كُتُبَهُ ، ولم أسمعْهُ يتحدَّثُ فى الإذاعةِ إلا نادرًا ومصادفةً.

ولكنى أبكيهِ يا بنى ، لأنه هو الذى مكَّننى ، منذُ ثلاثةٍ وعشرينَ عامًا ، من تعليمِكَ. وها أنتَ قد حقَّقْتَ لنفسِكَ ولأسرتِكَ من الثقافةِ والكرامةِ والخيرِ ما حقَّقْتَ.

أبكيهِ يا بنى ، لأن اللهَ تعالى أكرمَهُ بالعلمِ ، فلم ينسَ الجاهلينَ. وأغناه ، فلم ينسَ المُحتاجين. وأسعدَهُ ، فلم ينسَ مَنْ فى الأرضِ من المُعذَّبينَ."



الدكتورة سهير القلماوى و " الشرشرة "

فى الكتابِ التذكاريِّ الذى أصدرَتْهُ لجنةُ ثقافةِ الطفلِ بالمجلسِ الأعلى للثقافةِ ، حولَ أستاذتِنا الدكتورة سهير القلماوى ، يقولُ الأستاذُ الدكتور أحمد مرسى ، أستاذُ الأدبِ الشعبيِّ بكليةِ الآدابِ جامعة القاهرةِ :

يُمكنُ أن أحكِيَ الكثيرَ عما تعلَّمْتُهُ من أستاذتى و أمِّى سهير



القلمـاوى ، لكننـى سـأكتفى بحكايـةٍ واحـدةٍ ، تمثّـلُ شـخصيتَها وخصالها .

ففى بدايةِ حياتى الجامعيةِ ، عندما عُيِّنتُ مُعيدًا فى قسمِ اللغةِ العربيةِ ، وكانَتْ أستاذتى الجليلةُ رئيسًا للقسم ، طلبَتْ منّى ذاتَ يومٍ أن أكتبَ شيئًا فـى أمرٍ يخصُّ القسمَ ، لكى تحملَهُ معها إلى مجلسِ الكليةِ ، وأن أفعلَ ذلك بسرعةٍ .

كانَ معى " كشكول " من النوعِ الذى يجمعُ السلكُ أوراقَهُ ، فانتزعْتُ ورقةً منه ، وكتبْتُ ما أرادَتْهُ ، وذهبْتُ لأقدِّمَهُ لها . وكانَتِ المفاجأةُ أنها لم تقرأ مـا كتبْتُ ، وإنما أخذَتِ الورقةَ ، ونظرَتْ إلىَّ وهى تكوِّرُها بيدِها ، وقالَتْ بالحرفِ الواحدِ :

" يا بنى ، ما فيش واحـد محـترم يكتـب علـى ورق مشرشـر .. هتكتب علـى ورق مشرشر ، هـا تبقى هدومـك مشرشـرة ، وشـغلك مشرشر ، وها تبقى إنت نَفْسَك بنى آدم مشرشر ، وأنـا مـا احبش حد من ولادى يبقى مشرشر . روح شوف ورقة عِدْلة ، واكتب اللـى طلبته منك . "

ولم تكنْ سهير القلماوى طـوالَ حياتِها " إنسان مشرشر " ، ولم تسمحْ لأىٍّ من أبنائِها وتلاميذِها أن يكونوا " مشرشرين " !!



خافوا من تنويرك للعقول!!

فى روايةِ الأديبِ "حسن محسبٍ" عن "رفاعة الطهطاوى" ،
والتى يقدِّمُ فيها ملحمةً رائعةً عن الحبِّ لمصرَ والتضحيةِ للوطنِ ،

يحكى الكاتبُ الروائِيُّ الموهوبُ هذه الحكايةَ ، يقولُ:

"عندما تُوُفِّيَ محمد على فى الثانى من أغسطس سنةَ ١٨٤٩، جاءَ بعدَهُ الخديو عباس.

أمر الخديو عباس: "تتمُّ تصفيةُ المدارسِ ، وتُحرَقُ أو تُغلَقُ مدرسةُ الألسنِ!!"

وثارَ الطهطاوىُّ ، وهرولَ إلى القلعةِ ، وقالَ لعباس: "هذا قرارٌ يُعيدُ البلادَ إلى عصرِ الجمودِ والتخلُّفِ والظلامِ."

فغضبَ منه عباس ، وأمرَ بنَفْيِهِ إلى السودانِ وهو يقولُ له ساخرًا: "شيخ رفاعة تُريدُ تعليم.. اذهبِ إلى طوكر بالسودانِ ، عيَّنْتُكَ ناظرَ مدرسةٍ ابتدائيةٍ هناك .. علِّمِ الناسَ خرافاتٍ وهلوساتٍ عن حرية .. وثقافاتٍ .. وحضاراتٍ .. ولن تعودَ من هناك ما دُمْتُ أنا أحكمُ ... "

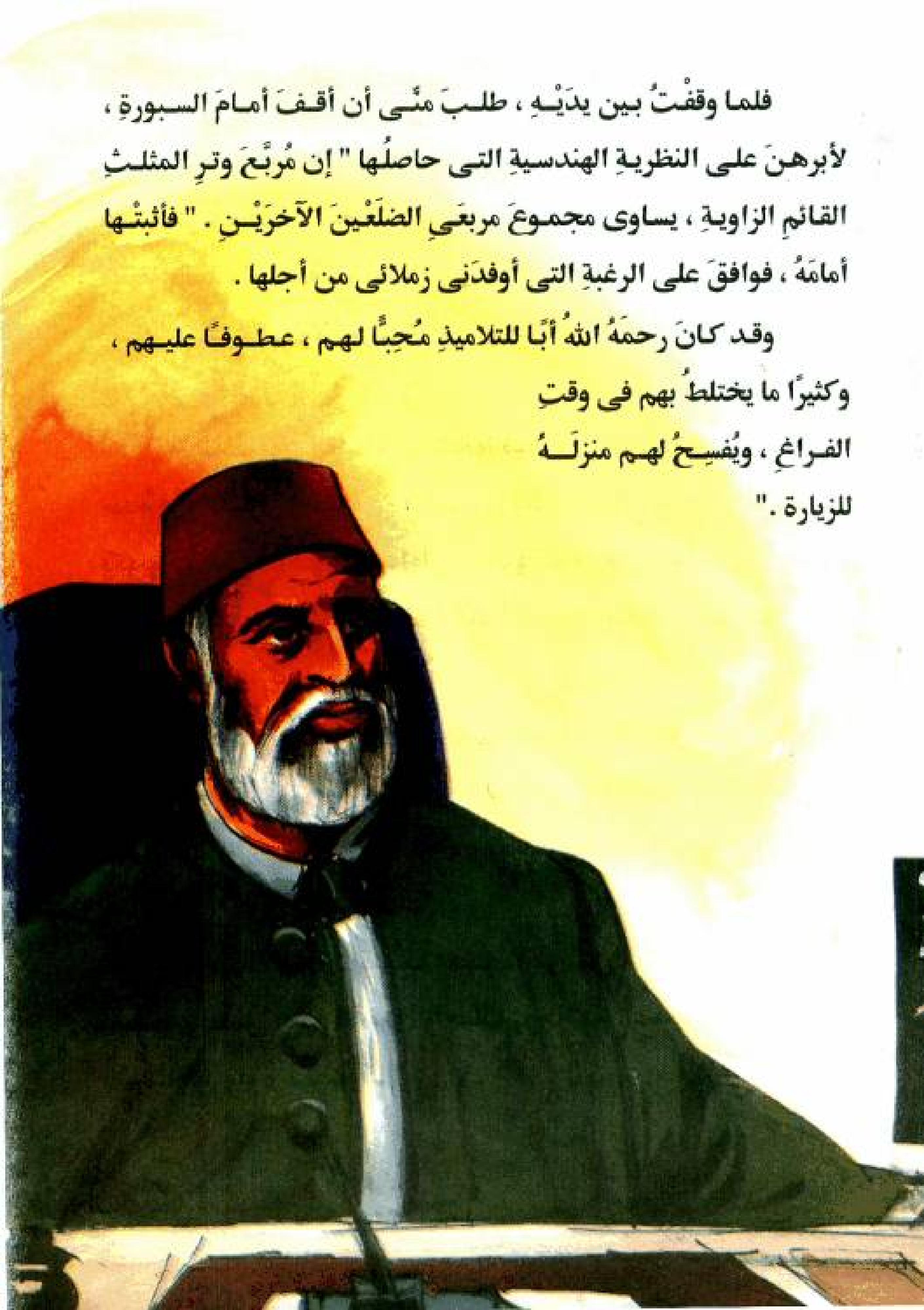
وكانَ لرفاعة زميلٌ بالأزهر ، قالَ لهُ: "هذه وشايةٌ من الأمراءِ والأعيانِ ، لأنهم خافوا من تنويركَ لعقولِ الناسِ ، وتعليمِ عامَّةِ المصريين .. وغضبوا من إلغائك اللغةَ التركيةَ ، ودعوتِكَ إلى الدستور الحريةِ ، وهم يُريدونَ أمَّةً من العبيدِ.." وسافرَ الطهطاوى إلى السودانِ ، لكنْ مع تولِّى سعيد عرشَ مصرَ سنةَ ١٨٥٤، عادَ إلى مصرَ ، ليُكمِلَ مسيرةَ التعليمِ والتنويرِ.

على باشا مبارك .. أبو التعليم

عندما كانَ أستاذُ الجيلِ " أحمد لطفى السيد " تلميذًا فى مدرسةِ الخديوية سنة ١٨٨٩ ، وهى السنةُ التى حصلَ فيها على شهادةِ " البكالوريا " ، التى تُشبهُ الثانويةَ العامةَ العاليةَ ، كانتِ المدرسةُ تعقدُ اختبارًا كلَّ شهرٍ لتلاميذِها .

ويقول أستاذُ الجيلِ : " رغبَ تلامذةُ البكالوريا أن تُعفِيَهم المدرسةُ من الاختباراتِ الشهريةِ ، حتى يُوَجِّهوا كلَّ جهودِهم فى المذاكرةِ للامتحانِ العامِّ . وأجمعَ رأيُهم على أن يطلبوا إلى وزيرِ المعارفِ على باشا مبارك ، إعفاءهم منها . واختارونى للذهابِ لمقابلتِهِ ، فذهبْتُ إليه .

وكانَ من عادتهِ أن يضعَ سبورةً فى مكتبهِ ، لاختبارِ كلِّ منْ يتقدَّمُ إليه من الطلبةِ فى حاجةٍ يُريدُها ، ولا يُجيبُهُ إلى حاجتِهِ ، إلا إذا أجابَهُ إجابةً صحيحةً فيما يختبرُهُ من المسائلِ الرياضيةِ أو العلميةِ .



فلما وقفْتُ بين يدَيْـهِ ، طلـبَ منِّـى أن أقـفَ أمـامَ السـبورةِ ، لأبرهنَ على النظريـةِ الهندسيةِ التى حاصلُها " إن مُربَّعَ وترِ المثلـثِ القائمِ الزاويـةِ ، يساوى مجموعَ مربعَىِ الضلعَيْنَ الآخرَيْـنِ . " فأثبتّـها أمامَهُ ، فوافقَ على الرغبةِ التى أوفدَنى زملائى من أجلها .

وقد كانَ رحمَهُ الله أبًا للتلاميذِ مُحِبًّا لهم ، عطـوفًا عليـهم ، وكثيرًا ما يختلطُ بهم فى وقتِ الفـراغِ ، ويُفسِـحُ لهـم منزلَـهُ للزيارة . "

الجنود يحملون أولاد الأسرى !!

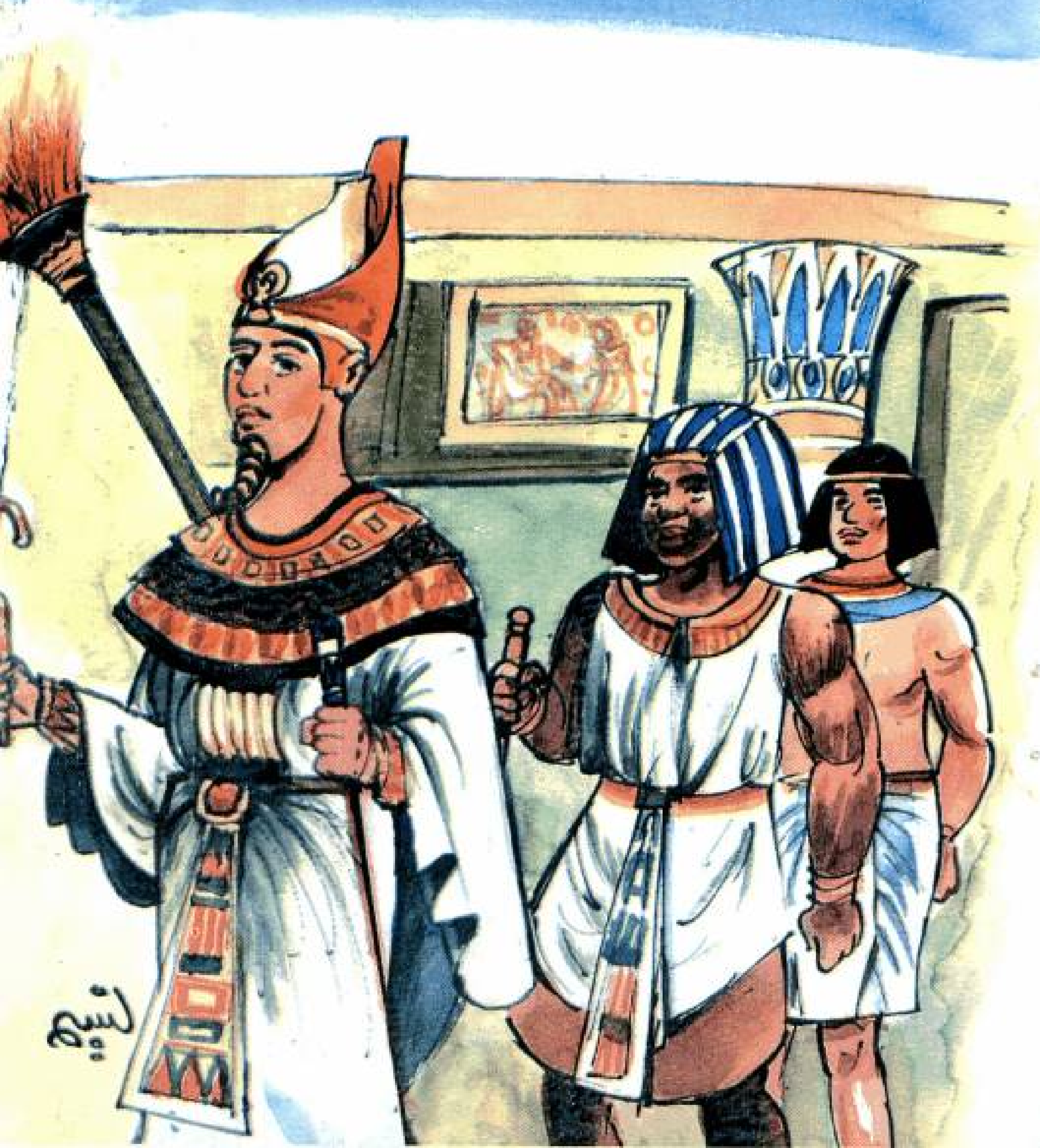
فى الحديثِ المُمتعِ المُهِمّ مع عالمةِ الآثار الفرنسيةِ "نوبلكور" ، الذى نشرَتْهُ مجلةُ " المصور" فى أحدِ أعدادِها ، تؤكِّدُ العالمةُ الشهيرةُ حقيقةً مهمةً ، لم يتنبَّهْ إليها الكثيرون ، وهى أنه فى مصرَ الفرعونيةِ ، لم يكن هناك عبيدٌ ولا عبوديةٌ ، وهو ما يؤكِّدُ تقدُّمَهم الحضاريَّ والإنسانِيَّ. فتقولُ :

" المصريون القدماءُ لم يكونوا قُساةً على الإطلاقِ . كان هناك خدمٌ فى المنازلِ ، يعيشونَ مع أسرةٍ واحدةٍ لأجيالٍ عديدةٍ ، لكنهم لم يكونوا عبيدًا . أما فى الإمبراطوريةِ الرومانيةِ ، فإن القانونَ الرومانِيَّ كان يعتبرُ العبدَ " شيئًا" ، وملكًا كاملاً لسيدِهِ ، يتحكّمُ كما يشاءُ فى حياتِهِ أو موتِهِ ، كأنه بقرةٌ أو ثورٌ ."

" وكانَ هناك أسرى حربٍ فى مصرَ القديمةِ ، ويمكنُ أن نعتبرَ هؤلاء عبيدًا ، لكن حتى هؤلاء لم تكنْ معاملتُهم سيئةً . بل إن المصريين كانوا يسمحونَ للأسرى بإحضار زوجاتِهم وأبنائِهم ، ولم تكنْ هناك دُوَلٌ أخرى تفعلُ ذلك ."

" وهناك كتاباتٌ قديمةٌ لجنودٍ مصريين ، يشتكونَ من أنهم يضطرُّونَ لحملِ أولادِ الأسرى وأحيانًا زوجاتِهم ، عندما كانوا يعبرونَ بهم مناطقَ وعرةً .. تَصوّرْ !! "

ثم تقولُ: " إن الأمريكيين لم يعاملوا السودَ الذين جلبوهم من إفريقيا كعبيدٍ هذه المعاملةَ الإنسانيةَ ، بل كانَ الزوجُ يُباعُ بعيدًا عن زوجتِهِ وأولادِهِ ، والزوجةُ والأولادُ يُباعونَ بغيرِ شفقةٍ ، كلٌ واحدٍ منهم لسيدٍ مُختلفٍ !! "





لن أُقَبِّلَ يده

كتبَ الكاتبُ الساخرُ "يعقوب صنوع" (١٨٣٩ - ١٩١٢) يحكى عن نفسِهِ ، قالَ:

كنْتُ فى طفولتى شديدَ الاعتدادِ بنفسى. وفى الثالثةَ عشرةَ من عمرى ، كتبْتُ قصيدةً مدحْتُ بها ناظرَ مدرستى. وعندما قرأها والدى ، اقترحَ علَىَّ أن أكتبَ قصيدةً أمدحُ بها الأميرَ "أحمدَ"، حفيد "محمد على باشا" حاكمِ مصرَ. فكتبْتُ قصيدةً طويلةً قدَّمها

والدى ، اقترحَ علَىَّ أن أكتبَ قصيدةً أمدحُ بها الأميرَ "أحمد" ، حفيد "محمد على باشا" حاكمِ مصرَ. فكتبْتُ قصيدةً طويلةً ، قدَّمَها والدى للأميرِ ، الذى لم يصدِّقْ أن صبيًّا فى الثالثةَ عشرةَ يستطيعُ أن يكتبَ هذه الأشعارَ. وطلبَ الأميرُ أن يرى هذا الطفلَ المعجزةَ ، فذهبْتُ لأقابلَهُ.

وعندما دخلْتُ قاعةَ الاستقبالِ ، كانَتْ ملآنةً بالزائرين. وقدَّمَنى والدى إلى الأميرِ وهو يقولُ: "هذا هو الشاعرُ الصغيرُ."

ثم همسَ لى قائلاً: "قبِّلْ يدَ الأميرِ."

أما أنا فحيَّيْتُ الأميرَ وأنا أقولُ: "السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ."

وأمسكَنى أبى بعنفٍ ، وهو يقولُ بصوتٍ منخفضٍ: "لماذا لم تقبِّلْ يدَهُ؟"

فأجبْتُهُ: "لا .. لن أقبِّلَها!!"

وهدَّدَنى والدى ، لكننى أصررت على الرفضِ.

وشعرَ الأميرُ بما يحدثُ بينى وبينَ أبى ، فحاولَ أن يستوضحَ الأمرَ ، فسبقْتُ أبى بالكلام وأنا أقولُ:

"لا أدرى لماذا يُريدُ والدى منِّى أن أقبِّلَ يدكم !! إننى إنسانٌ مثلُكم ، بل إننى أجيدُ كتابةَ الشعرِ!!"

ونزلَتْ هذه الكلماتُ على أبى كالصاعقةِ ، لكنَّ الأميرَ لم يغضبْ من ثقتى الكبيرةِ بنفسى ، بل أمرَ أن أكملَ تعليمى فى أوربا ، على نفقتِهِ!!

طريقتهم فى ذلك الحين

يتحدَّثُ أستاذُ الجيلِ أحمد لطفى السيد ، فى كتابِهِ "قصة حياتى". عن بشاعةِ أساليبِ الحكمِ فى نهاية القرن التاسع عشر ، أى سنة ١٨٨٢ تقريبًا ، وكان عمرُهُ عشر سنواتٍ ، فيقولُ:

"أذكرُ أن الضربَ فى ذلك الزمانِ كانَ مباحًا ، حتى ضَرْبُ العمدةِ والأعيانِ ، وكانَ هذا بعضَ ما يحدثُ فى القرى المصريةِ من القسوةِ والاستبدادِ.





وقد رأيتُ ذلك بنفسى أكثرَ من مرةٍ ، إذْ كانَ لوالدى صديقٌ يشغلُ وظيفةَ "مفتش تفتيش" ، فكنْتُ وأنا بمدرسةِ المنصورةِ ، أذهبُ إلى بيتِهِ يومَ الجمعةِ ، فأرى حوشَ التفتيشِ مرشوشًا ، والبيك المفتشَ قاعدًا في صدرِهِ ، وقد وقفَ اثنانِ من "القوَّاسَة" (مثل الخفراء) يحملانِ الكرباجَ و "الفَلَقَة" (وهى أداةٌ للضربِ على باطنِ القدمِ) لضربِ العُمَدِ الذين يتأخَّرُ أهلُ قريتِهم فى دفعِ الإيجار.

ثم يضيفُ أستاذُ الجيلِ قائلاً: "وكانَتْ هذه هى طريقتَهم فى ذلك الحينِ .. فانظرْ كيف كانَتِ الحالُ بالأمسِ ، وكيفَ هى اليومَ."

ضحكة فرعونية !

قد تكونُ هذه هى أقدمَ النوادر التى سجَّلَها الإنسانُ ، فقد وجدْناها مكتوبةً على قطعةٍ من ورقِ البردى ، يرجعُ عهدُها إلى حوالى سنة ٢٤٠٠ قبلَ الميلادِ.

وتقولُ الحكايةُ ، إن أحدَ الكتبةِ كان يقومُ بتسجيلِ العقودِ فى غرفتِهِ قربَ مدخلِ معبدِ آمون ، فأزعجَتْهُ الضوضاءُ المُنبعِثةُ من الغرفتَيْنِ عن يسارِ ويمينِ غرفتِهِ ، وكانَ يعملُ فى أحدِهما نجارٌ ، ويعملُ فى الأخرى بنَّاءٌ.

وأحسَّ الكاتبُ أنه سيُجَنُّ من الضوضاءِ ، فذهبَ إلى النجار، وقدَّمَ إليه مبلغًا كبيرًا من المالِ ، لكى يتركَ غرفتَهُ إلى غرفةٍ أخرى. ثم فعلَ نفسَ الشيءِ مع البنَّاءِ. وأخذَ الرجلان المالَ ، بعدَ أن وافقاه على طلبِهِ.

وفى اليومِ التالى ، اكتشفَ الكاتبُ أن البنَّاءَ انتقلَ إلى غرفةِ النجار ، وأن النجارَ انتقلَ إلى غرفةِ البناءِ!!

